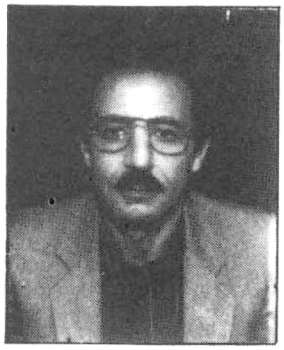

آخر كلام

د. سليمان العطار

«عثمانة» تدخل الحلم !

لقد دخلت البنت «عثمانة» الحلم بعد أن نامت ولم تخرج الى اليوم. بعدها غادر عثمان والدها القرية دون عودة ولم يعرف أحد الى أى البلاد راح. بعض الناس قالوا إنه سكن بطن حوت فى البحر البعيد الذى لا ساحل له. واخرون قالو أنه تدروش ولبس مرقعه وعمامة خضراء وسار فى الطريق الذى لا اخر له إلا عالم الحلم الذى دخلته «عثمانة» ابنته التى أطلق عليها هذا الاسم الغريب بعد أن كان ينتظر مولودا ذكرا يحمل اسم الأب «عثمان». عندما جاء المولود «أنثى» لم يحزن كما كان متوقعا. فرح كما لم يفرح أب. أقام ليلة لله قدم فيها أطايب الطعام للقرية ورقص على انغام الناى ودقات الطبول. لقد كان يتلهف لهذه الولادة هو وزوجته منذ زواجهما الذى استمر عشرة أعوام من العقم واليأس.

همست كل القرية فى حزن «بنت موت» لم يصل الهمس قط الى أبوى عثمانة. وبالفعل الفتاة كانت جميلة وبرزت أسنانها وتكلمت وانتقلت من الحبو الى المشى فى عامها الأول. كان حجمها ضعف سنها. لم تغادر وجهها الابتسامة. كان الجميع يحاول أن يتسلل الى بيت عثمان ليرى عثمانة نائمة فقد حكى الناس ان الملائكة كانت ترفرف فوق سريرها وهى تضحك فى وجوههم. رأيتها نائمة أكثر من مرة وكنت أشك فى أنها نائمة حيث تتسع عيناها المفتوحتان وتتلألأ فيهما ابتسامة ساحرة يظن من يراها أنها تصدر منها ترحيبا به.

ماتت أمها فى عامها الثالث. تنافست كل نساء القرية فى عرض أمومتهن عليها. أحببنها أكثر من بناتهن. كان الجميع يتمنى دخولها بيوتهم. البيت الذى تدخله تحل به البركة. تضاعفت محاصيل القرية وأصابت الأبقار خصوبة مضاعفة وكثر انجابها لعدد من التوائم فى كل ولادة وتناسلت الأغنام وصارت قطعانها تتزايد بشكل ملفت للنظر. أرجع الناس ذلك لوجود عثمانة بين ظهرانيهم. كانوا يستدعونها ويطلبون منها لمس المريض ويلقنونها بعض الأدعية ولفرط اعتقادهم فيها كان يشفى على يديها أولئك المرضى. كان الجميع يبالغ فى الحديث عن نور يطل من وجهها ولاسيما عند اتساع ابتسامتها التى لا تفارق وجنتيها. لقد كانت تظهر أسنانها مثل صفين من اللؤلؤ البراق. كان بياض أسنانها الباهر فى عصر ما قبل ظهور أطباء للأسنان والمعاجين مما يثير الدهشة. لكنها صارحتنى مرة ونحن طفلين نلعب معا ـ وأنا أكبرها ببضع سنين ـ أن سر بياض أسنانها أنها تدعكها بالملح قبل النوم وعند الاستيقاظ. سألتها: ولماذا الملح؟ قالت لى إنها تحب الأثر اللذيذ الذى يتركه فى فمها. من يومها كلما ضايقتنى أسنانى دعكتها بالملح فلم أحتج الى طبيب أسنان قط.

كانت تحدثنا عن أحلامها وكأن هذه الأحلام معينا لا ينضب من حكايات الأطفال الفانتازية. إنها تلتقى بمخلوقات غريبة تصفها لنا تحملها فى إسراءات الى أراض مليئة بالأزهار ونوافير المياه حيث توجد الرياح ذات ألوان ونزوات قوس قزحية. كانت تصف فواكة عجيبة. أكد أهل القرية أنها فواكه الجنة. فى يوم فى حفل زفاف خالها رقصت طوال الليل وكانت تعلم الفتيات كيف يقرعن لها الطبل فى انغام غير معروفة لهن كي ترقص كما رقصت فى أرض الأحلام التى تزورها. عجزت الفتيات المراهقات عن مجاراتها ـ وهى بنت الأعوام الست ـ فى دق الطبول أو الرقص. قالت انها قررت ان تسكن فى أرض أحلامها حيث يجيد هناك الجميع الرقص والغناء والموسيقى وحيث لا يوجد شر او شجار ولكن أفراح متواصلة. وفى ساعة متأخرة نامت ودخلت فى الحلم ولم تعد. هاجمت منازل القرية البيضاء مئات من الطيور الصغيرة التى ترتطم بالجدران بشدة تاركة بقعا من الدماء وتسقط منتحرة. لم استطع حتى الآن أن أفسر هذه الظاهرة لكن أهل القرية فى وسط دموعهم المتدفقة فهموا كل شىء وصمموا على أن يعدوا فستان زفاف صغير وطرحة وتاج كفنا لعثمانة وشيعوها بالزغاريد والدموع، وبعدها انتشر بين بنات القرية اسم عثمانة على غرابته وعدم جاذبيته !

طبع في المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ البحرين